عندما يبكي الرجال !..

قصة بقلم سليمان فياض

ان تكون مسافرا ، وتقف على محطة ، في انتظار قطار ما ، ذلك شيء مقبض ، يثير الحزن في القلب ، وان تكون في انتظار قادم عزيز ، ذلك شيء مقلق للنفس . ولكن ان تكون متفرجا ، وتقف لغير غرض ، على ذات المحطة ، فذلك شيء رائع جدا ، بالغ الروعة . انك ترى العالم مصغرا مقتضبا في ابسط صورة ، على كفك . انت لا تشعر آنئذ بالفراغ ، ولا بالوحدة فقط . وكثيرا ما وقفت عصر كل يوم ، على الرصيف الرئيسي الكبير بمحطة الزقازيق ، لاشهد العالم ، عالمنا الصغير : أناس قادمون من كل جهة ، من الشمال والجنوب ، من الشرق والغرب ، وهم ابدا دائمو التجدد ، لا يشبه احدهم الاخر .

كان ثمة رفاق اخرون معي من طلبة المعهد الديني . كانوا يهربون من بيوتهم مثلي ، ثم يقفزون سور الاسمنت الى قلب المحطة ، ويعبرون عشرات القضبان ، مخلفين الورشة الكبيرة الفاحمة اللون وراء ظهورهم ، وعلى الرصيف الكبير ، كنا نتناثر هنا وهناك . اما انا ، فكنت اختار لنفسي عمودا حديديا ، في المنتصف تماما من الرصيف ، وأروح اراقب القادمين والذاهبين من مجهول الى مجهول .

ذلك العصر ، جاء القطار رقم ٣١٢ ، كان محملا بجنود مسلوخي الجلد . كانوا يسمونه قطار البيض . وكالعادة ، تعالت صيحات باعتنا ، وراحوا يقاضون الجنود الانجليز بالصابون ، والتماثيل النسائية العارية المصنوعة من الخشب او الجبس ، والمناديل النسائية الملونة ، والعطور البلدية . وكانوا يأخذون في مقابلها سجائر انجليزية فاخرة ، ماركة : النصر والمختار ، وجون بول .. سجائر فقط . كانت تثيرني دائما جرأة الانجليزي البالغة ، على ان يقف مطلا من نافذة قطار ، عاري الصدر ، وليس على جسده كله ، سوى سروال قصير اصفر اللون .

... وجاءت « سكينة » ، وراحت تنادي ، كالعادة ، ثانية عنقها لليمين واليسار ، متأودة ، متقصعة ، مادة يدها بالمنديل ، والمشط ، وعشرات الاشياء النسائية ، الخاصة جدا . كانت حلوة المنظر كالليمونة . كانت تأكل خبزا . وكنت ارقبها في صمت ، دائما ، عندما يأتي قطار البيض ، وعندما يأتي قطار السود . ويوما بعد يوم ، تدربت على ان اكف عن غيرتي وسخطي . وكنت اقول لنفسي دائما : « انها تأكل خبزا » ..

واقترب مني « هلال » وقال لي ، وهو يشير نحوها بعينيه :

ـ اتعتقد ، يابكر ، انها ستظل واقفة على قدميها ؟ . غير معقول . فمن يضع قدميه في الوحل ، لا بد ان يتلوث به يا بكر .. ضروري ان يحدث ذلك !

واذ كنت اعرف « هلال » جيدا كما اعرف « سكينه » فانني لم اغضب . قلت له فقط ، بثقة وحسم :

ـ هذه ! لقد مضت عليها سنة كاملة ، وما تزال واقفة على قدميها . منذ عام ثلاثة واربعين هي واقفة وحدها ، واقفة على قدميها مثل الرجال . لا يمكن ان تقع .

ونظرت للقطار ، للايدي ، والوجوه ، والاسنان الصفراء المفلجة ، المطلة من النوافذ ، وقلت لـ « هلال » :

ـ ايعجبك ذوو الدم الثقيل هؤلاء؟ انهم لا يعرفون شيئا سوى الصفير ؟ ولا يجعلني افقد اعصابي ، سوى ابناء السكسون ، عندما يسيرون في شارع عباس ، نافشين ريشهم ، وقد صنعوا من ايديهم مثلثا على الجانب الايمن ، واخر على الجانب الايسر ، ثم ... يأخذون في الصفير في الليل ، والناس نيام .

انا اعرف « سكينة » . اعرف انها مسكينة جدا .. لم احادثها قط ، ولكنني ابحث دائما عنها في المحطة ، وارقبها دائما . وهي تعرف ذلك . ولكنها مشغولة بالخبز ، بالبحث عن اللقمة التي تضعها في سبعة افواه من خلفها ، تنتظرها كل ليلة ، في حجرة من خشب « البغدادلي » بشارع الحريري . ومعرفتي بـ « سكينة » كلها من افواه الناس . وانا لا اشك فيما اسمعه من تاريخها . انهم يحادثونها ، فلماذا اكذبهم فيما يختص بها ؟ قال لي « أحمد » آنئذ :

ـ اترى . انها مسكينة جدا . ماذا يمكنها ان تصنع . انها تأكل خبزا . أبوها مات ذات ليلة تحت احدى العمائر . طائرة المانية ضربتها بالقنابل . مات في الاسكندرية ، وهو يطعم الناس ، في المطعم الوحيد بالعمارة .

اعرف ذلك جيدا . اعرف ان « سكينة » جاءت باسرتها الى هذه المدينة . ولم يمكنني قط ان اكتشف السبب في انها اختارت هذه المدينة بالذات ، دون سواها . ولكنني استطيع ان احزر السبب . استطيع ان ازعم مثلا لاقنع نفسي ، انها جاءت هنا لتأكل خبزا ، من المناديل ، والامشاط ، والتماثيل النسائية ، والاشياء الاخرى ، الخاصة جدا .

نظرت اليها ، وهي تسحب يدها بدلال ، من جندي اهتم . نظرت بغيظ . كم كانت رائعة في ذلك اليوم .. منذ شهرين وعشرة ايام تماما ، عرض عليها جندي اخر ، وسيم جدا ، ورقة صغيرة بخمسة وعشرين قرشا. كانت يده مسلوخة الجلد هو الاخر . وقال لها الجندي الوسيم كلمات بذيئة جدا . قالها بالانجليزية . وكنا جميعا نحفظ هذه الكلمات جيدا . واشار لها الوسيم . البغل اشار لها الى ما تحت القطار . المسكينة ضحكت آنئذ بدلال . المسكينة التمعت عيناها بلمعة الرغيف عندما يخرج ساخنا من الفرن . المسكينة وافقت . كدت اصرخ من الرعب والتقزز . هنا . تحت القطار . وسط الف رجل ومائة طفل . ومعها . مع عزيزتي « سكينة » المسكينة اخذت الورقة اللعينة . اخذت الثمن . وضحكت هي ، وتأودت . واختفى هو من النافذة ليخرج من باب العربة . وفي اللحظة ذاتها جرت هي شمالا مع الرصيف ، وانحرفت شرقا عند بوابة المعسكر الصغير . كان هذا المعسكر لابنائنا ، لجنودنا الذين يحرسون المحطة من غدر اللصوص والانجليز معا . كنت اعرفهم جيدا ، جنودنا . وكثيرا ما جلبت لهم زميلا ليغني او يقرأ القرآن ، في هدأة الليل . راح الجندي الوسيم يبحث عنها كالمسعور . كلم بسرعة جنديا اخر مفتول العضلات . وحملا بندقيتهما ، وذهبا وراءها الى بوابة المعسكر الصغير . أسرعت انا . « سكينة » هناك . سيقتلون « سكينة » . ربما حدثت معركة مع جنودنا . وقد يموت احد . عبرت الباب . لم يعترضني الحارس

الاول . كان صديقي . لم يعترضني الحارس الاخر . كان صديقي كانت « سكينة » هناك ، داخل الخيمة ، صفراء اللون ، مبهورة . كان جنودنا يتحلقون حولها . قلت لهم بسرعة :

ـ الانجليز قادمون ليبحثوا عنها . البنادق في ايديهم .

هتف الشاويش مفزعا :

ـ بنادق ؟!

.. وجاء الجنديان ، المسلوخا الجلد . ايديهما كانت على زنادي البندقيتين . كان جنودنا ايضا يقفون صفا واحدا ، شارعي البنادق بدورهم ، في صدري الجنديين . كانت الرمال ساخنة ملتهبة تحت الاقدام . وصرخ الشاويش غاضبا :

ـ ابتعد من هنا يا كلب انت وهو

وتكلم الجنديان المسلوخا الجلد كثيرا . لم يفهم جنودنا كلمة من حديثهما ، طلب الجنديان ان يفتشا الخيمة باشارة من طرف البندقية ، بندقية الوسيم . ورفض الشاويش ، واخذ « التكة » الاولى في زناد البندقية . اصفر وجها الجنديين ، وانسحبا عائدين . لقد سارا آنئذ مسافة طويلة بظهورهما ، وبندقيتاهما مدلاتان الى اسفل . وذلك اليوم . ابتسمت « سكينة » لي ، والشاويش يطاردها حانقا ، قائلا لها:

ـ كنت ستسببين لنا مجزرة .. لا تأتي هنا مرة ثانية

ما كان اروعها ذلك اليوم .. بحثت عن « سكينة » حولي . كانت قد اختفت ، وكان قطار البيض قد اختفى ايضا ، حاملا معه الجندي الاهتم ، وقال لي « محمود » :

ـ بعد ساعة يأتي قطار الموريشان

وقلت لنفسي : «ساعة . يا لها من زمن طويل» . وتركت مكاني بالمحطة. وعبرت بوابة الرصيف . ولم يعترضني عامل التذاكر . كان صديقي . السير على شاطيء بحر مويس ، اواخر الخريف ، في قلب ضباب رمادي ، متعة جميلة حقا ، لمن يحمل في يده عودا اخضر اللون من القصب. ان رشف العصير من العود يدوي في الاذنين كالطبل . وليس احلى للنفس من رؤية السحاب الرمادي في السماء . والوجه اللامع لطريق الشاطيء ، عندما لا تكون على الطريق سوى سيارات قليلة ، متباعدة ، لا تطلق نفيرا واحدا .

لا ادري لماذا تذكرت ذلك الجندي . ربما كان السبب هو طول عامود النور الهائل في اول الكوبري .. كان الجندي فارع القوام . كان يتكلم الانجليزية ، ولكن لم يكن انجليزيا . كان محروق اللون لدرجة شديدة. وكانت له لحية سوداء بيضاء في وقت واحد . وكانت حول رأسه عمامة هندية لا تخطئها العين . كان هنديا اذن . وعندما راى بعضنا يلبس عمائم بيضاء ، نزل من العربة ، راح يرطن بكلمات لا تفهمها . وآنئذ قدمنا له « شوقي » فأخذ يرطن بمقابله . كان « شوقي » تلميذا في المدرسة القانونية المجاورة لنا . التفت « شوقي » الينا آنذاك وقال لنا :

ـ انه مسلم من الهند . وهو ذاهب ليحارب في شمال افريقيا . ويقول انه يريد منا مصحفا ، لكي يعلقه كتعويذة حول رقبته . ويقول ان المصحف سيحميه من الموت في الميدان

ارتعدت تلك اللحظة . لم تكن الحرب حربه هو . ومع ذلك سيحارب. ولذلك يحتاج مصحفا ليدفع عنه موتا لا يريده . ونظرنا الى بعضنا . لم يكن مع احدنا مصحف ما . وتقدمت « سكينة » وفكت ازرار ثوبها ، ونزعت من رقبتها مصحفا كان معلقا بعناية . مصحفها الخاص . كانت تحمله ايضا ليدفع عنها اخطار حياة لا تريدها . وقدمت المصحف للهندي الطيب ، وعيناها دامعتان . واخذه الهندي بلهفة ، وقبله بحنان . ثم مد لها يده بجنيه ، ولكنها رفضت . رفضت بشدة . وقالت انه هدية منها . وضحكت . وذهبت الى عربة اخرى ..

وعلى شاطيء بحر مويس اخضلت عيناي بالدموع ، دموع مشرقة . ووقع عود القصب الى جواري ، على سور الكوبرى . كم كانت «سكينة» رائعة في ذلك اليوم ايضا ..

على البعد رايتها .. يا الهي.. سكينة؟. لا يمكن ان تكون هذه هي ..سكينة . محال . محال ان تكون هنا الان ، على شاطيء بحر مويس . كانت ترتدي فستانها الاسود . كان فستانا بالغ البساطة . وكانت تلبس شبشبا اسود في قلبه شريط احمر . اعرفه جيدا على بعد ميل . كانت تقف هناك بعيدا في الجنوب ، على الرصيف المقابل . هبطت من فوق السور ، وسرت نحوها ، على رصيفي . لقد ابدلت ثيابها بسرعة ، ولما يمض على قطار البيض وقت طويل ، وجاءت الى هنا : « لماذا ؟ » و« لاي سبب ؟ ». قلت لنفسي . وقفزت الى رأسي ، عربات جيب انجليزية ، وعربات اللوري الاخرى . قلت لنفسي : « اتكون قد سقطت؟». وقلت لنفسي : « سأمنعها ، اذا لم يكن الوقت قد فات » .

اسرعت اليها . عبرت الشارع ، الى رصيفها . كادت سيارة «لوري» انجليزية ان تدهسني . تراجعت خطوتين بسرعة . ورايتها آنئذ . رايت « سكينة » في اللحظة ذاتها ، تقف في وسط الشارع ، في قلب ضباب شفيف ، مادة ذراعيها تحت السحاب ، كان على ذراعيها « ايشرب » ازرق ، كالدخان . وراحت « سكينة » تشير للعربة . زاقت عجلات العربة بشدة ، وهي تقف امامها ، على ارض الشارع اللامع . استدارت هي حول العربة بسرعة ، لتركب من الخلف . بدأت تصعد . الايدي المسلوخة تساعدها . عدوت نحو العربة . ورحت اصرخ بصوت داو :

ـ سكينه .. سكينه ..

التفتت هي الى الخلف ، بينا كانت تجلس . اقسم ان لونها قد شحب، اقسم انني سمعتها تهتف في نفسي : « بـــكر ... بكـــر » . ولكنهم اجلسوها ، واخذوها . اخذوها بعيدا ... الى عشرات الرجال . عدت حزينا اجرجر قدمي نحو عود القصب . حملته معي . وقلت لنفسي بغير ثقة : « ربما لم تكن هي » . كنت اعرف ثوبها الاسود ، وشريط حذائها الاحمر ، وذلك الـ « ايشرب » الازرق ، كالدخان. وكان قلبي يتفتت في داخلي !

عندما ينام الانسان سليما معافى ، ثم يستيقظ ليجد نفسه مريضا ، فانه آنئذ يرى العالم اصفر نماما . وتبدو الاشياء امامه كالاشباح . وعندما يصحو الانسان على اصوات استغاثة ، فان اذنيه تصفران ، ورأسه يطن ، وتستيقظ حواسه كلها ، لان عقله قد توقف . هكذا كنت تماما عندما ولجت بوابة الرصيف الحربي الكبير للمحطة . وعند ذاك ، ملأت انفي رائحة حريق ، وكان على لساني مذاق رماد . وحين تملأ الانف رائحة حريق ، ويعلو اللسان مذاق رماد ، فذلك معناه ان الكارثة تحدث ، وانت في قلبها . وماذا تكون « سكينه » ، والهندي ، سوى الكارثة بعينها . ان رائحة الحريق ، حين تسد كل منفذ لاية نسمة طليقة ، لابد ان تكون آتية من بيت يحترق . وهل تكون سكينه ، والهندي ، سوى هذا البيت الذي احترق ، وانتشر منه الرماد الاسود ، الى كل فم .

وقت الغروب كان يتلاشى ذلك اليوم . والظلمة كانت تنتشر ، وعقارب الساعة تقترب من السادسة ، دقائق فقط ويأتي قطار الموريشان : الجنود الذين هم من افريقيا واسيا ، وتأتي « سكينه » ايضا ، اذا لم تكن هي

فتاة اللوري . كم اتمنى الا تكون هي. المحطة هنا ، تحت اقدامي ، اعلى من اي مكان اخر في المدينة كلها . ورائحة الحريق اكثر وضوحا . حتى الظلمة الخفيفة محمرة اللون . والسحاب الرمادي آخذ في التكثف والتسربل بالسواد . كأن كل شيء على الرصيف يعكس حريقا هائلا في البعيد حريقا يمتد الى مدينتنا ليقتلعها من الجذور .. منذ عامين فقط، صحوت من نومي على صراخ بشري مرعب . وعدوت الى الشارع . كان كل شيء احمر اسود . كانت هناك ، يا للفظاعة ، كتل خشبية تتهاوى جمرات متقدة حول البيوت المجاورة . لم يستطع اي انسان ان يقترب . كان هناك بيت من « البغدادلي » يحترق ، وراح يتهاوى جدارا بعد جدار.

استندت بظهري الى عامودي الخاص على الرصيف . ساقاي مخدرتان، متعبتان . والمصابيح مدلاة مثل المشنوقين على اعمدة الارصفة . جاء « طاهر » وقال لي :

ـ أين كنت ؟.. لقد حدثت ثورة في التل الكبير .. لقد ثار جنود الموريشان ، ضربوا رصاصا في الانجليز . يقولون ان معركة قد دارت هناك ، ان قوات الانجليز قد جاءت من معسكرات فايد ، حاصرت معسكر الثوار . لا أحد يدري ماذا يحدث هناك الان .

فكرت آنذاك ، ان النار تشتعل في معسكر الموريشان بعيدا ، قرب مدينتنا . قلت لنفسي : « بيت آخر يحترق » .

في البعيد ، صوب الجنوب ، سقطت شارة « السنافور » ليمر قطار رقم ٥٧٦ . ومن البعيد راحت ضجة ما تتعالى وتقترب ، السماء قد تلبدت الان بغيوم سوداء كثيفة ، ربما امطرت السماء . سيزول البرد لو امطرت السماء . ربما انطفأ ايضا هذا الحريق الهائل تحت قطرات المطر . وآنئذ ستعود « سكينه » الينا . بدأت الضجة تتضح عندما لاحت عجلات القطار. دخل قطار الموريشان بجوار الرصيف الحربي . احتكت عجلات القطار بالقضبان رويدا رويدا . وعلت صفارة ألقطار على كل ضجة . لم تكن في نوافذ العربات أية يد ، ولا اي وجه . ومع ذلك كانت الضجة في الداخل صاخبة تدوي . مر القطار من امامي : الونش ، العربات الست الاولى ، واحدة بعد اخرى . سكتت الصفارة والعجلات ، وانطلق دخان الونش الاسود عاليا ، وفتحت ماسورة في جدار الرصيف . الناس يتجمعون حول القطار ، حتى بين القضبان في الجهة الاخرى . جنود الحراسة في معسكرنا الصغير ، اقبلوا ليعرفوا الخبر . جنود الموريشان متكدسون وقوفا ، تحت الاف الاعين . ايديهم العجفاء الفاحمة ، مرفوعة الى اعلى في زوايا قائمة . ايديهم تتذبذب علوا وانخفاضا ، اعلى واسفل ، كما لو كانت تشد صفارات عديدة ، وافواههم تهتف ، تردد ، تبكي : « بوم‌بوم .. بوم بوم ... بوم بوم .. » يا له من موكب بشري. شعري يقف. اذناي ترتعدان . لم تحضر « سكينه » قط هذا القطار . « سكينه »بينهم على اي حال . «سكينه» بينهم على اي حال . «سكينه» تهتف ، تردد ، تبكي: «بوم بوم .. بوم بوم .. بوم بوم .. » . وجوم شامل يسود المحطة . ليس هناك من صوت اخر وراء صوت الفجيعة الرتيب ، سوى صوت دخان القطار من المدخنة ، وماسورة البخار في جدار الرصيف .

اسرع جنود الحراسة الانجليز ، اسرعوا يغلقون النوافذ والابواب على علب السردين . كانوا يخافون على الروح المعنوية لسكان افريقيا واسيا ، هنا ، في مدينة منعزلة ، في قلب الصحراء. الشاويش الانجليزي المسلوخ الجلد ، شاهدته يبكي ، فيما هو يأمر وينهي . دموعه تتحدر غزيرة . الناس جميعا بكوا . بكيت بدوري ، على « سكينه » ، والهندي . امن الضروري ان تكون الكارثة كبيرة جدا ، لكي نبكي جميعا . في تلك اللحظة فقط تحدث الناس : صدمة حرب . صدمة حرب هي صدمة حرب فقط. وسكينه ؟ هل اصابتها الحرب ايضا ؟. اخذوهم من قلب الغابات واكواخ القش . طرحوا من ايديهم الدروع ، والرماح ، ووضعوا فيها بنادق ومدافع ، قذفوا بهم من الطائرات ، التي تتقلب في الفراغ على ظهورها ، وبطونها . قذفوا بهم في وجه الالمان في خط النار ، في قلب الحريق الرئيسي. يا للفظاعة. ان يجتاز الانسان الفءام من الزمن دفعة واحدة. ان ذلك لمرعب حقا !

صلصل الجرس النحاسي على الرصيف ... سار القطار بعيدا . كان مقررا للقطار الموريشان ، كما هي العادة ، ان يبقى ساعتين . ولكن رئاسة المعسكر الانجليزي خافت بلا شك . وعندما اختفى تماما في البعيد ، اختفت « سكينة » تماما من رأسي : عيناها الحلوتان . وجهها الليموني . كله راح . وانهمر المطر ، وراح يسقط في قلبي :قطرة، قطرة !

تلك الليلة عند الفجر ، حاولت النوم دون فائدة . يقولون ان اليصابات ملكة الانجليز ، أعلنت ذات‌مرة ، ان الرجل الانجليزي ، الذي يحمل ويلد مثل النساء ، سيصبح ملكا على انجلترا كلها . ومن يومها والانجليز يحاولون ان يصبحوا ملوكا .. والليلة ، وانا عائد من « طاهر » سرنا بجوار جدار الورشة الهائل ، لنعبر السور الى حينا . كنا نقترب من كشك الحراسة الانجليزي ، حين شاهدنا قريبا من الكشك ، في الظلام الندي ، بائعا سريحا يرفض باصرار طلبات سكسوني . كان السكسوني يلح ويلح، كان شيئا يؤرقه . لا اعرف ما الذي جاء بالبائع هنا ، ما دام يرفض ان يدخل معه كشك الحراسة . ربما كان المبلغ الذي يعرضه سكسوني مجهول لا يعجبه . وقلت لنفسي : « انه ، هو الاخر ، يأكل خبزا ».. ولم يصدقني « طاهر » حين رويت له خراقة اليصابات ونحن نبتعد ، حسبها مزحة. انا اعتقد ذلك . ولكن ماذا افعل في مسألة كشك الحراسة هذه .

سألت نفسي وانا احاول النوم : هل يمكن ان يلد الرجال حقا ؟... ولكن : اذا كانت « سكينة » تسلم نفسها وجسدها في سيارة « لوري » اذا كان الهندي يطلب مصحفا ليحميه من الموت. اذا كان الموريشان يعبرون مئات السنين ليعيشوا في قلب مدفع . اذا كانت البيوت والمدن تحترق ولا يطفئها سوى المطر ، فلماذا لا يلد الرجال اذن ؟!

القاهرة **سليمان فياض**

صدر عن دار بيروت للطباعة والنشر

احاديث

مع المرأة العربية

بقلم الكاتب الاجتماعي

الدكتور جورج حنا